حرف العين

أيا صادحات الأيك

خرج للعراق في طلب النوق العصافيرية، مهر عبلة، فأسر هناك. فتذكر ديار قومه وهو في سجن المنذر بن ماء الماء، فقال:

[الطويل]

جُفُونُ الْعَذارَى من خلالِ البَراقعِ
أَحَدُّ من البِيضِ الرِّقاقِ القَواطعِ(١)
إذا جُرّدَتْ ذَلّ الشّجاعُ وَأصْبحتْ
مَحاجرهُ قَرْحى بفَيْضِ المَدامِعِ(٢)
سَقى اللَّهُ عَمّي من يدِ الموْتِ جرْعةً
وَشُلّتْ يَداهُ بعد قطعِ الأصَابعِ(٣)
كما قادَ مِثْلي بالمُحالِ إلى الرّدى
وَعَلّقَ آمَالي بذَيْلِ المَطامعِ(٤)

(١)، (٢) يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع غزلي فيتحدّث على أثر سحر عيون العذارى، وقد حجبت بالبراقع المزدانة برسوم جميلة وألوان مقرحة، في المرء؛ إنها أشدّ فتكاً من السيوف القاطعة، وذلك في حال كشفت العذارى عن عيون تسحر القلوب فتُوقع الشجاع في حبالها ممّا يحيله إلى ضعيف يلوذ إلى البكاء حتى تبدو مدامعه مقرّحة لكثرة بكائه.

(٣)، (٤) يدعو الشاعر على عمّه الذي أورده موارد التهلكة أن يسقيه اللّه تعالى =

لـقـد وَدّعَـتْـنـي عَـبْـلَـةٌ يَـوْمَ بَـيْـنِـهـا
وَدَاعَ يـقـيـنٍ أنّـنـي غَـيـرُ رَاجِـعِ[١]
وَنـاحَـتْ وَقـالـتْ: كـيْـفَ تُـصْـبـحُ بـعـدنـا
إذا غِـبْـتَ عـنّـا فـي الـقِـفَـارِ الـشّـوَاسِـعِ[٢]؟
وَحَـقِّـكَ لا حـاوَلْـتَ فـي الـدّهْـرِ سـلـوَةً
وَلا غَـيّـرَتْـنـي عَـنْ هَـوَاكَ مَـطـامـعـي[٣]
فَـكُـنْ وَاثِـقـاً مِـنـي بـحُـسْـنِ مَـوَدّةٍ
وَعِـشْ نـاعِـمـاً فـي غِـبـطـةٍ غـيـر جـازعِ[٤]
فَـقُـلْـتُ لـهـا: يـا عَـبْـلَ! إنـي مُـسـافـرٌ
وَلـوْ عـرَضَـتْ دونـي حـدودُ الـقـوَاطـعِ[٥]
خُـلِـقْـنـا لـهَـذا الـحُـبّ مـنْ قَـبْـلِ يَـوْمِـنـا
فـمـا يَـدْخُـلُ الـتّـفْـنـيـدُ فـيـهِ مَـسـامـعـي[٦]

= جرعة الموت لتشفيه من مكره وخداعه، كما يتمنّى لو تشلّ يده فلا يُمكنه فعلُ شيء، وذلك لأنه أودى به إلى موت محقّق مدغدغاً مشاعره بأنه قادر على ما طلب منه، مستغلاً سذاجته وثقته بنفسه.

(١)، (٢) كان وداع بين الشاعر وعبلة يفيض حسرة وخوفاً ألّا رجوع من تلك الرحلة لاعتقادها بخطورة ما هو مُقبل عليه، واستهلت بالبكاء كاشفة عن أسباب ذلك؛ منها بعد المسافة ومجاهل تلك الصحاري الممتدّة.

(٣)، (٤) تطميناً للشاعر أقسمت عبلة يمين الولاء والإخلاص أنها لن تسلو بعده ولن تحيد عن الإخلاص له، لذا فعليه أن يُؤمن بحبّها له؛ فهي صادقة الودّ وعليه أيضاً أن ينعم بقدر كبير من الأمن وراحة البال وأن يعمر قلبه فرح غامر، وألّا يخاف إذا طالت غربته، فهي ترتقب رجوعه بفارغ الصبر.

(٥)، (٦) كان ردّ الشاعر على عبلة تصميمه على السفر، مهما كلّفه الأمر، حتى لو تعرّض للقتل، ولقد كانت المقادير أن الحبّ وحّد بين قلبيهما لهذا فلن يسمح للأكاذيب أن تقنعه بعدم صواب ما هو مقدم عليه.

أيـا عَـلَـمَ الـسَّـعْـديّ! هـلْ أنـا رَاجِـعٌ
وَأَنْـظُـرُ فـي قُـطْـرَيـكَ زَهْـرَ الأَرَاجـعِ[١]؟
وَتُـبْـصِـرُ عَـيْـنـي الـرّبْـوَتَـيـنِ وَحـاجـراً
وَسُـكّـانَ ذاكَ الـجِـزْعِ بَـيـنَ الـمَـراتـعِ[٢]
وَتَـجْـمَـعُـنـا أَرْضُ الـشَّـرَبّـةِ وَالـلِّـوَى
وَنَـرْتَـعُ فـي أكـنـافِ تـلـكَ الـمَـرَابـعِ[٣]
فَـيَـا نَـسَـمَـاتِ الـبَـانِ! بـالـلّـهِ خَـبّـرِي
عُـبَـيْـلَـةَ عَـنْ رَحْـلـي بـأيّ الـمَـوَاضـعِ[٤]
وَيـا بَـرْقُ! بَـلّـغْـهـا، الـغـدَاةَ، تَـحـيّـتـي
وَحَـيّ دِيـارِي فـي الـحِـمَـى وَمَـضَـاجـعـي[٥]
أيـا صَـادِحـاتِ الأيْـكِ! إن مـتُّ فـانـدُبـي
عـلـى تُـرْبَـتـي بَـيـنَ الـطّـيُـورِ الـسّـوَاجـعِ[٦]
وَنُـوحـي عـلـى مـن مـاتَ ظُـلـمـاً وَلـم يَـنَـلْ
سِـوَى الـبُـعـدِ عَـنْ أحْـبـابـهِ وَالـفَـجـائـعِ[٧]

---

(١)، (٢) شيء من الخوف حمل الشاعر على التوجه إلى علم السعديّ مستفسراً يحدوه الأمل بالرجوع سالماً وظافراً من رحلة المخاطر هذه، حيث يرى زهراً جديداً قد زين ربوع قطري تلك الربوع، ويبصر الربوتين وحاجراً في ديار الحجاز الحبيبة، وحتى من فيهما من البشر حيث يرتعون ويسرحون ويمرحون.

(٣) ويُضيف أن يلتقي بمن أحبّ في المرابع من أرض الشربّة واللوى، فهناك يحلو العيش، وينعمان بحبهما وراحة البال سالمين.

(٤)، (٥) يخاطب نسائم البان الرقيقة طالباً منها أن تحمل رسالة اطمئنان لعبيلة وتخبرها عمّا حدث له في ديار الغربة ليطمئن بالها، فتلك وسيلة سريعة، ويطلب أيضاً من البرق أن ينقل رسالته معطرة بالتحيات الحرّة لعبلة والديار ومن فيها في تلك الربوع، ولم ينس أيضاً مسكن طفولته حيث دفن أجمل لحظات العمر.

(٦)، (٧) ويخاطب الشاعر الحمائم التي اتّخذت من شجرات الأيك التي =

وَيـا خَـيْـلُ! فـابـكـي فـارِسـاً كـان يَـلْـتَـقـي
صُـدُورَ الـمَـنَـايـا فـي غُـبـارِ الـمَـعـامـعِ[١]
فـأمْـسـى بَـعـيـداً فـي غَـرَام وَذِلّـةٍ،
وَقَـيْـدٍ ثَـقـيـلٍ مِـنْ قُـيُـودِ الـتّـوَابـعِ[٢]
وَلَـسْـتُ بـبـاكٍ إنْ أتَـتْـنـي مَـنِـيّـتـي،
وَلـكـنّـنـي أهْـفُـو فَـتَـجْـرِي مَـدامـعـي[٣]
وَلـيـسَ بـفَـخـرٍ وَصْـفُ بـأسـي وَشـدّتـي
وَقَـدْ شـاعَ ذِكْـرِي فـي جـمـيـعِ الـمَـجـامـعِ[٤]
بـحَـقّ الـهَـوَى، لا تَـعْـذلـونـي وَأقْـصِـرُوا
عَـنِ الـلّـوْمِ إنّ الـلّـوْمَ لـيـسَ بـنـافـعِ[٥]

= استطالت حتى عانقت السماء وهي تغني أن تبكيه في حال موته في ديار غربته، فقد مات ظلماً ولم يستفد من تلك الرحلة سوى المصائب والبعد عن أحبابه وأرض صباه.

(١)، (٢) ويخاطب الشاعر الخيول، رمز الفروسية، وقد تآلفا طوال رحلة الكفاح طالباً منها أن تبكي فارساً مغواراً قد اعتاد على مواجهة الموت في ميادين القتال، فاستحال أمره إلى غربة، بعيداً عمن أحبّ وقد أسر أحد ملوك المناذرة أحفاد التتابعة العظام من ملوك اليمن، وليس في ذلك عار عليه، فالقيود وسام شجاعته.

(٣) من علائم الرجولة أن يصمد المرء في الملمات، وبخاصة أمام الموت، فالموت حقّ، لذا يُعلن الشاعر أنه لن تذرف عيناه دمعة حزن أو خوف أمام الموت؛ وفي الحقيقة فإن دموعه دموع الشوق إلى الأحبّة والديار.

(٤) ليس من دواعي الفخر، والشاعر على هذه الحالة، أن يذكر أعماله في الحروب فقوّته وشدة بأسه، قد شاعت أخباره في حلقات القوم يستذكرون ويتسامرون بذكرها.

(٥) يقسم الشاعر بحقّ الهوى طالباً من البشر ألّا يلوموه، راجياً أن يتوقفوا عن الملامة، فقد فات أوانها، وهذا لا يفيد، في حالته هذه.

وَكَـيْـفَ أُطـيـقُ الـصّـبـرَ عَـمّـنْ أحـبّـهُ
وَقد أُضرِمتْ نارُ الهوَى في أضَالعي[١]؟

عنترة وبسطام سيد بني شيبان

كان مالك بن قراد لما فر بابنته عبلة من وجه عنترة ونزل على قيس بن مسعود، سيد بني شيبان، فأكرمه قيس وأحسن إليه، وكان لقيس ولد من الفرسان يقال له بسطام ويكنى بأبي اليقظان، فلما نظر إلى عبلة أعجبته ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً فخطبها من أبيها، فوعده بزواجها على شرط أنه يأتي له برأس عنترة، فقبل ذلك ونهض من وقته طالباً ديار بني عبس، فالتقى بعنترة في الطريق، فهجم عليه يريد برازه وأنشد أبياتاً مطلعها:

حادثات الدهر تأتي بالبدع
ترفع العبد وللحر تضع

فلما سمع عنترة قوله استشاط غضباً وكان قد بلغه خبره فبارزه وهو يقول:

[الخفيف]

يا أبا اليَقْظانِ! أغْوَاكَ الطّمَعْ
سَوْفَ تَلْقى فارِساً لا يَنْدَفِعْ[٢]
زُرْتَني تَطْلُبُ مني غَفْلَةً،
زَوْرَةَ الذِّئْبِ عَلى الشّاةِ رَتَعْ[٣]

(١) يستغرب الشاعر كيف أنه يطيق صبراً وبعداً عن المحبوبة والأهل والديار؛ فالقلب جمرُه لا ينطفئ، دائم الأجيج ولا تخمد ناره.

(٢)، (٣) يخاطب الشاعر أبا اليقضان ناعياً عليه زيارته المفاجئة، وهو يطمع أن ينتهز منه غفلة ليفتك به، خاب ظنّه فسوف يلقى بطلاً لا يفرّ جبناً؛ إنها زورة ذئب خبيث يتحيّن الفرص ليفتك بشاة لاهية. خاب ظنه خاب.